بحث رقم ٣٨

منهج الشيخ الكاندهلوي في شرحه لكتاب مشكاة المصابيح

د. محمد سعد صديقي*

الحمد لله الذي تسلسل اتصال آلائه، وتواتر إفاضة نعمائه، في كل آنٍ وحين، على جميع الآحاد، بلا حصر وتعيين. وأشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأشهد أن سيدنا ومولانا محمدا عبده ورسوله خاتم فص النبوة، آخر سراج مشكاة الرسالة. وبعـــــد!

فإن الله تعالى قد خلق آدم على صورته، وجعله خليفة في الأرض، وأمر ملائكته أن يسجدوا لآدم، فسجد الملائكة إلا إبليس، فلعن الله تعالى عليه على هذه المعصية وتأويليه، فقال إبليس: لأغوينهم أجمعين بأن أقعد على صراطه، وأضله من خلف وأمام، ومن يمين وشمال. فهذه دعوة الشر للإنسان وخلق الله تعالى رئاسة النبوة والرسالة لدعوة الخير والفلاح، وجعل آدم أول نبيه ورسوله.

إن الله تعالى قد بعث أنبياءه ورسله في زمن شتى وفي أقوام وملل مختلفة، ونسب أولئك الأنبياء والمرسلين إلى أقوامهم كما قال تعالى: ﴿وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾[٢] ﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا﴾[٣] ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾[٤] فنبوتهم ورسالتهم كانت محدودة بزمان ومكان وبقوم ولسان.

بقيت تلك السلسلة الذهبيه إلى خاتم الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد ﷺ، وجعله الله آخر الأنبياء والمرسلين. ورفعت من نبوته حدود الزمان والمكان، وقيد الشعوب والقبائل، وجعل

* أستاذ مشارك، جامعة بنجاب، لاهور بباكستان. msaad_sidd@yahoo.com.

[٢] هود: ٥٠.

[٣] هود: ١١.

[٤] هود: ٨٤.

رسالته لكافة الناس، وأمره أن يقول: ﴿قُلْ يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾[1]. فدعوة محمد ﷺ ثبتت لأقوام وأزمنة إلى يوم الدين قال رسول الله ﷺ في خطبة حجة الوداع: «قد تركت فيكم أمرين ما استعصتم به لن تضلوا ابداً، كتاب الله وسنة نبيه»[2] فالاعتصام بكتاب الله وسنة نبيه هداية إلى صراط مستقيم وإلى صراط الذين أنعم الله عليهم، ووقاية من صراط الضالين ومن سبيل الذين غضب الله عليهم.

قد استمسك أمة محمد ﷺ امتثالا لهذا الأمر بكتاب الله وسنة نبيه، واشتغل علماء هذه الأمة في حفظ أقوال النبى ﷺ وسنته بتدريسها وتأليف كتب فيها؛ لأن الاشتغال عندهم بعلم الحديث كان من أجل القربات وأعظم المثوبات؛ لأن السنة كانت تفسيراً للقرآن الكريم كما قال الإمام الشافعى رحمه الله: "جميع السنة شرحٌ للقرآن"[3]. ولأن السنة وسيلةٌ لفهم القرآن الكريم كما قال الإمام أبو حنيفة رحمه الله: "لولا السنة ما فهم أحد منا القرآن"[4].

ولأن كتاب الله وضع بنيانًا لنظام الحيوة وأساسها، ويحتوى كتاب على أحكام أساسية، فلذا فيها إجمال وإطلاق، فقيدت السنة هذا الإجمال والإطلاق، ولذلك قال الأوزاعى: "الكتاب إحوج إلى السنة من السنة إلى الكتاب"[5]. وقال الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله: "إن السنة تفسير الكتاب وتبيينه"[6]. وبالجملة صارت علوم الحديث أفضل العلوم وأشرفها، والاشتغال بها صار أسعد الأشغال والأفكار[7].

فجمع المحدثون أقوال رسول الله ﷺ وأفعاله وتقريراته في كتب وتأليفات كما أمر رسول الله ﷺ حينما قال لأحد من أصحابه: "استعن بيمينك" أى اكتب[8].

ولامتثال أمر رسول الله ﷺ لكتابة الحديث توجه أصحاب رسول الله ﷺ إلى كتابة الحديث، وهذه المجموعات قد بقيت على شكلها، ووصلت إلى أيدي المحدثين في القرن الثاني

---

[1] هود: ٨٤.

[2] **الموطأ** للإمام مالك رقم الحديث ١٥٩٤.

[3] **التعليق الصبيح على مشكاة المصابيح**، محمد إدريس الكاندهلوي ١/٣ (ط: المكتبة العثمانية لاهور- باكستان).

[4] المصدر السابق.

[5] المصدر السابق.

[6] المصدر السابق.

[7] كتاب **السنن الترمذي** رقم الحديث ٢٦٦٦.

[8] **رواية الحديث بأقلام الصحابة**، ساجد الرحمن الصديقي، ص:١٦.

والثالث، ودمجوا جميع ما احتوت عليه تلك المجموعات من الأحاديث في الكتب الحديثة المتأخرة تبعاً لسنة التدوين والتأليف كما ورد أن "الصحيفة الصحيحه" التي كتبها الصحابي الجليل عبد الله بن عمرو بن العاص ﷺ بتمامها في مسند الإمام أحمد بن حنبل، ووردت كذلك جملة من أحاديثها موزعة في كتب الأحاديث الأخرى. يقول العلامة أبو الحسن علي الندوي في كتابه "رجال الفكر والدعوة": "وإذا اجتمعت هذه الصحف والمجاميع، وما احتوت عليه من الأحاديث، كونت العدد الأكبر من الأحاديث التي جمعت في الجوامع والمسانيد والسنن في القرن الثالث، وهكذا يتحقق أن الجموع الكبير الأكبر من الأحاديث سبق تدوينه وتسجيله من غير نظام وترتيب في عهد الرسول ﷺ وفي عصر الصحابة ﷺ" [1].

وهذا السلسلة قد وصلت إلى الأئمة الستة الذين ألّفوا الكتب الستة في الحديث التي عرفت بالصحاح الستة.

وبعد تأليف كتب الستة قد فتح باب تأليف في الحديث الشريف، وتوجه العلماء والباحثون في الحديث في تأليف شروح هذه الكتب وتعليقاتها واستدراكها.

ومن هذه الجماعة السعيدة رجل جليل فى العلم والفهم أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي الذي ألّف مصابيح السنة لإشاعة ضوء السنة في زمنه وفي أزمنة قادمة.

منهج البغوي في مصابيح السنة:

جمع البغوي أحاديث رسول الله ﷺ في المصابيح بأسلوب جديد وبمنهج فريد، ولم يذكر أسناد الأحاديث، بل اكتفى بذكر اسم الصحابي ومصدره من الكتب الستة، جمع البغوي أحاديث الإيمان وأحاديث العبادة والسير والآداب والفتن والأشراط بأسلوب جديد، وقسَّم البغوي كل باب في قسمين: "الصحاح" و"الحسان".

فحينما خرج الحديث من البخارى أو من مسلم نقل في قسم "الصحاح"، وحينما خرج الحديث من السنن الأربعة نقل في قسم "الحسان". وقال مؤلف الكتاب: "من مصابيح الدجى خرجت عن مشكاة التقوى، أوردها الأئمة في كتبهم، جمعتها للمنقطعين إلى العبادة، لتكون لهم بعد كتاب الله حظاً من السنن" [2].

---

[1] **مشكاة المصابيح**، الخطيب التبريزي، مقدمة.

[2] **المرقاة شرح المشكاة** لملا علي القاري، مقدمة.

عدد الأحاديث من مصابيح السنة:

يوجد في عدد الأحاديث في مصابيح السنة اختلاف كثير. وفيها أقوال مختلفة. كمايلي:

١- قال القاري في "المرقاة": "عدد أحاديث المصابيح (٤٤٣٤)[١].

٢- وذكر حاجى خليفة في كتابه "كشف الظنون": "قيل: عدد أحاديثه (٤٧١٩)، منها المختص بالبخاري (٣٢٥) حديثاً، وبمسلم (٨٥٧) حديثاً، والباقي من كتب أخرى"[٢].

٣- النسخة المحققة لمصابيح السنة المتشتملة على أربعة مجلدات وصل فيها رقم الحديث الأخير إلى (٤٩٣١) حديثاً[٣].

وبعد مقارنة في هذه الأقوال نصل إلى نتيجة أن قول حاجي خليفة في هذا الباب راجح، ومأتان واثنا عشر حديثاً قد تكررت في الكتاب. طبع مصابيح السنة أول مرة من بولاق في سنة ١٢٩٤هـ، ومن القاهرة في سنة ١٣١٨هـ الموافق ١٩٠٠م على هامش الموطأ للإمام مالك رحمه الله. وقد طبع محققاً بتحقيق وتخريج الدكتور يوسف عبد الرحمن المرعشي ومحمد سليم إبراهيم سماره وجمال حمري الذهبي في سنة ١٩٨٧م من دار المعرفة بيروت.

وذكر المستشرق الألماني في تاريخ التراث العربي ٣٩ نسخةً خطيةً للمصابيح، توجد في مكتبات مختلفة في العالم[٤].

من مصابيح السنة إلى المشكاة:

ولد الإمام ولي الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الله الخطيب التبريزي صاحب المشكاة في تبريز، وهو من أعيان القرن الثامن للهجرة. قال الشيخ الألباني فيه: "ولم نجد له بين أيدينا ترجمة وافية، إلا أن من عرضوا له ذكروه بالعلم والصلاح، قال فيه شيخه العلامة الحسن بن محمد الطِّيبِي أحد شراح المشكاة: "بقية الأولياء قطب الصلحاء". وقال عنه الملا علي القاري شارح مشكاة مؤلف مرقاة المفاتيح: "مولينا، الحبر العلامة، والبحر الفهامة، مظهر الحقائق وموضح الرقائق، الشيخ التقي النقي". وقد توفي الإمام الخطيب بعد سنة ٧٣٧هـ، لكن لا نعرف تاريخ وفاته بالضبط، وقد وصلنا من مؤلفاته "مشكاة المصابيح"، و"الإكمال في أسماء الرجال"[٥].

---

[١] **كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون**، لحاجي خليفة ٢/١٧٠٠.

[٢] **مصابيح السنة**، للبغوي الحسين بن مسعود ج٤، بيروت: دارالمعرفة، الطبعة الثانية، ١٤٠٧هـ.

[٣] **تاريخ التراث**، ٢/٢٣٥.

[٤] **مشكاة المصابيح** بتخريج الشيخ محمد ناصر الدين الألباني، مقدمة.

[٥] المصدر السابق.

تأليف كتاب المشكاة:

قد فرغ الخطيب من تأليف كتاب مشكاة المصابيح في يوم الجمعة المبارك ٢٩ رمضان المبارك سنة ٧٣٧هـ، هلال عيد الفطر، ومستكمل أنوار شهر رمضان المبارك وبركاته، وعز منيف كتابه[١].

اشتهر كتابه "مشكاة المصابيح" بين العلماء والمحدثين شهرةً عظيمةً، وتدأوله الشارحون والفقهاء فيما بينهم؛ لأنه مجموعة أقوال رسول الله ﷺ وأفعاله بترتيب حسن. وسنذكر أسلوب الخطيب ومزاياه في السطور التالية.

١- ذكر بروكلمان ٢٦ نسخة خطية في مكتباب موصل ومصر وسليمإنية وبنغال والهند. وهذه إشارة بليغة منه لقبول هذا الكتاب في أطراف العالم وأكنافه[٢].

٢- قسم البغوي كل باب في قسمين كما ذكرنا، ولكن قسم الخطيب كل باب في ثلاثة فصول، ونقل في الفصل الأول الأحاديث من البخاري ومسلم، وفي الفصلين الأخيرين من السنن الأربعة.

٣- الإمام البغوي لم يذكر اسم الصحابي راوي الحديث، كما لم يذكر اسم الكتاب الذي خرج منه الحديث، ولكن الخطيب ذكر اسم الصحابي، وأيضا المصدر الذي نقل منه الحديث.

٤- حذف الخطيب أسانيد الأحاديث، واكتفى بذكر اسم الصحابي فقط، اعتماداً على مؤلفي كتب الستة وغيرها كما قال: "وإني إذا نسبت الحديث إليهم كأني أسندت إلى النبي ﷺ؛ لأنهم قد فرغوا منه وأغنونا عنه".

٥- نقل البغوي في كتابه الأحاديث المرفوعة فقط، بينما نقل الخطيب أقوال الصحابة والتابعين في الفصل الثالث فقد ذكر في باب الاعتصام بالكتاب والسنة قول حسان بن عليه (م:١٣٠هـ)، وهو تابعي جليل العلم.

٦- نقل الخطيب قطعة من متن الحديث الطويل، و لم يذكره بتمامه.

٧- نقل الخطيب الأحاديث بسنده، لذا يوجد في بعض الأحاديث اختلاف في المتن على موضوع واحد عن البغوي في المصابيح.

---

[١] **تاريخ التراث**، ٢/٢٣٥.

[٢] **علم تفسير مولينا محمد إدريس كاندهلوي كي خدمات رسالة دكتوراه**، محقق: محمد سعد صديق.

٨- نقل الخطيب الأحاديث الضعيفة والغريبة، لكن لم يصرح بضعفها وغرابتها وسبب ضعفها وغرابتها. لكن حينما نقل هذا الحديث الضعيف أو الغريب في المشكاة صرح الخطيب بضعف الحديث وغرابته وسبب هذا الضعف والغرابة.

٩- اعترض بعض النقاد على البغوي أنه نقل ١٨ حديثاً موضوعاً، نقل الخطيب هذه الأحاديث في المشكاة، وأثبت أنها غير موضوعة.

عدد الأحاديث:

عدد أحاديث المشكاة يصل إلى ٦٢٣٠ على القول الراجع. وأضاف ١٥١١ حديثاً على أحاديث المصابيح. ورقم الحديث الأخير في المشكاة في نسخة مرقومة ومحققة ٦٢٥٦، لذا ٢٦ حديثاً متكررة في المشكاة.

شروح المشكاة:

شرف الله تعالى تأليف الخطيب بالقبول بين الأمة، فاشهريين اهل العلم شهرة واسعة. وأقبل عليه العلماء بتدريسه وتأليف شروحه، فقد ألّف العلماء والمحدثون عدة شروح عليه.

ونال كتاب "المشكاة" شهرة كبيرة في شبه القارة الهندية، حيث توجه العلماء والمحدثون إلى تدريسه وشرحه، كما قرر تدريسه في المؤسسات التعليمية والجامعات الدينية، لذلك نجد شروح المشكاة بلغة أردوية والفارسية كثيرة، بالإضافة إلى العربية، وبالجملة يعتبر كتاب مشكاة المصابيح من أهم كتب الحديث في شبه القارة، وهو وعمدة العلماء والباحثين في مجال تعليم الحديث النبوي.

ولا نستطيع أن نحصى شروحه إحصاء كاملا، ولكن نذكر هنا عدداً منها.

١. "الكاشف عن حقائق السنن" للعلامة حسين بن محمد الطِّيبِي.
٢. "شرح المشكاة" للشيخ أبي الحسن علي بن محمد علم الدين السخاوي.
٣. "منهاج المشكاة" للشيخ عبد العزيز الأسهري.
٤. "المرقاة شرح مشكاة المصابيح" للملا علي القاري.
٥. "شرح مشكاة" للشيخ شهاب الدين أبي العباس أحمد بن محمد بن علي بن الهيثمي.
٦. "حاشية المشكاة" للشيخ محمد سعيد بن مجدد الألف الثاني.
٧. "حاشية المشكاة" للشيخ سيد محمد شريف علي بن محمد حجر العسقلاني.

٨. "هداية الرواة إلى تخريج المصابيح" لابن حجر العسقلاني.
٩. "لمعات التنقيح" للشيخ عبد الحق المحدث الدهلوي.
١٠. "أشمة اللمعات" (باللغة الفارسية) للشيخ عبد الحق الدهلوي أيضاً.
١١. "مرعاة المفاتيح" للشيخ عبد الله رحماني المباركفوري.
١٢. "مظاهر حق" (باللغة الأردية) للشيخ نواب قطب الدين خان الدهلوي.
١٣. "التعليق الصبيح على مشكاة المصابيح" للشيخ محمد إدريس الكاندهلوي.

وورقتنا هذه تتعلق بهذا الأخير، "التعليق الصبيح على مشكاة المصابيح" للشيخ محمد إدريس الكاندهلوي، فنأتي على ترجمة الشيخ أولاً، ثم التعريف بالكتاب.

الشيخ محمد إدريس الكاندهلوي رحمه الله

ترجمته وخدماته العلمية:

ألّف الشيخ محمد إدريس الكاندهلوي شرح المشكاة، ونذكر هنا ترجمة وجيزة، ونستعرض خدماته العلمية استعراضاً سريعاً.

إن العلامة الفاضل، فخر الأماثل، أستاذ المحدثين الشيخ محمد إدريس بن محمد إسماعيل الكاندهلوي رحمه الله تعالى رحمة واسعة، ولد في ١٢ ربيع الثاني سنة ١٣١٢هـ في قرية كاندهله، من قرى الهند، قريبة من الدهلي البلدة التي نسب إليها مرجع علوم الحديث في العجم الشاه ولي الله بن عبد الرحيم الدهلوي قدس الله سره العزيز.

حفظ القرآن الكريم في صباه قبل أن يبلغ إحدى عشرة سنة من عمره، ثم أكمل الدراسات الابتدائية والثانوية بمدرسة شهيره تسمى "مظاهر العلوم" في بلدة سهارنفور. وبعد ما وصل إلى الدراسات العالية التحقق بالجامعة الكبيرة في الهند، وهي "دارالعلوم ديوبند"، وتلمذ على شيخ المحدثين، إمام العصر حافظ الحديث، الشاه محمد أنور الكشميري، أستاذ الأساتذة، وكبير المدرسين في تلك الجامعة، فبرع في علوم الحديث الشريف والتفسير والفقه والكلام، حتى صار آيةً في العلم والحفظ والذكاء والحلم والاستنباط لغوامض التفسير من الكتاب والسنة، وبالاضافة إلى ذالك كان ماهراً في اللغة والنحو والصرف. وكانت له اليد الطولى في الأدب والإنشاء والشعر، وكان حسن الخط، فإذا كتب يرى كأن اللآلي قد نثرت

على قرطاس، ولأجل هذه المنقبة والمزية في العلم كان يعظمه مشايخه الكرام جمعيا وجميع أساتذته، وكان إذا ألقى الخطاب في الدرس يرى كأن وابلاً من سحاب العلم يمطر، أو نهراً ييسر بهدوء يسقي الظمآن، ويروي العطشان من طلبة العلم. وعين أستاذا للحديث والتفسير في دار العلوم ديوبند منذ شبابه، واستمر في تدريس هذا العلوم، إلى أن هاجر إلى باكستان سنة ١٩٤٩م. وكان معروفا بالفضل والكمال والصفات الحميدة بين أكابر العلماء والفضلاء. يقال: إنه ليس محض شخص، وواحد من أهل العلم والفضل، بل كأن خزانة العلم والكتب تمشي على وجه الأرض. توفب الشيخ في اليوم الثامن والعشرين من شهر رجب ١٣٩٤هـ في لاهور- باكستان.

ألف الشيخ محمد إدريس تأليفاتٍ كثيرة في عدة من العلوم والفنون من الأدب والكلام والتفسير والحديث والسلوك والمعرفة، حتى بلغ عدد تصانيفه خمسا وسبعين أو أكثر.

وله تأليف كبير في مصطلح الحديث وأصوله، ولكنه لم يطبع حتى الآن.

كما أن له تأليفا في حل تراجم أبواب البخاري الذي لم يطبع أيضا إلى حد الآن سوى جزء واحد من أجزائه. وله تأليف كبير في تفسير القرآن العظيم (معارف القرآن) باللغة الأردية، ولكنه لم يتمكن من إكماله؛ فإنه حينما بلغ إلى تفسير قوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ۞ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ۞ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الصافات:١٨٠-١٨٢] لبَّى دعوة ربه والتحق إلى الملأ الأعلى، وذلك في ٨ من شهر رجب عام ١٣٩٤هـ، فإنا لله وانا إليه راجعون، ثم تصدى لتكميل ذلك التفسير نجله الكبير وخليفته من بعده الشيخ محمد مالك الكاندهلوي، الذي كان شيخ الحديث بالجامعة الأشرفية بلاهور بعد وفاة والده. وطبع ذلك التفسير في سبعة أجزاء.

وللمؤلف كتاب في أحكام القرآن من المنْزل السابع للقرآن الكريم، وله تأليفات ذوات عدد في رد المسيحية، وتحقيق التوحيد، والسيرة النبوية، ومسائل الكلام وغيرها.

لكن الشيخ وقف عمره على خدمة الحديث والتفسير تدريساً وتأليفاً. وهذا الكتاب الذي نحن بصدده الآن ألفه الشيخ حينما كان شاباً يانعاً؛ لأنه فرغ من تأليفه في شهر محرم الحرام سنة ١٣٤٩هـ، وما كان عمره أكثر من ثلاثين سنة كما قال الشيخ: "قد فرغت يمين هذا العبد الضعيف من تأليف هذا التعليق وتحريره، واستراح قلمه من تسويده وتسطيره - بعون الله تعالى وحسن

توفيقه وجزيل فضله وعظيم إنعامه – يوم الأربعاء، السابع والعشرين من شهر الله محرم الحرام سنة ١٣٤٩ من الهجرة النبوية – على صاحبها ألف صلاة وتحية – حين إقامتي بحيدرآباد دكن".

سبب التأليف:

قد اشتهر مشكاة المصابيح في أهل العلم، وأقبل العلماء والمحدثون على شرحه وتهميشه وتدريسه كما ذكرنا. لكن أقبل الشيخ الكاندهلوي على تأليف شرح المشكاة امتثالا لأمر أستاذه الشيخ السيد محمد أنور شاه كما قال الشيخ: "أمرني قدوة العلماء الراسخين، ورأس الفقهاء والمحدثين، نعمان أوانه، وبخاري زمانه، شيخي وأستاذي، مولاي الشاه السيد محمد أنور – نور الله وجهه يوم القيامة ونضر. آمين – بشرح هذا الكتاب الجليل، فبقيت أحير من الصب، وأذهل من الضبّ؛ فإن شرح معاني الآثار، وبيان مشكلات الأخبار، وإزالة الشبهات عن الأحاديث المشتبهات، يحتاج إلى معرفة السنن والآثار، والوقوف على كلام أئمة الكبار، وإن بضاعة علمي وعملي مزجاة، وأستار الجهل والعجز عليَّ مرخاة، ثم انضاف إلى ذلك ضعف البنية وقصور الهمة وسقام النية؛ فأَنَّى لمثل القاهر العاجز أن يقطع هذه الأسباب والمفاوز، الشقة شاسعة، وليس في القربة من الماء جرعة، الطريق وعر والفج عميق، وليس في المزود كف سويق، ولكن لما تكرر أمري واشتد الإصرار، عزمت على الاقتحام في هذا الغمر متوكلاً على الله، ومفوضاً أمرى إلى الله" [1].

فألّف الشيخ "التعليق الصبيح" امتثالاً لأمر أستاذه وشيخه ومربيه، وحصلت له بركة فريدة، حيث حظي بافتتاح الكتاب بقلم شيخه الذي كتب أسطراً في بداية التأليف، لعل الشيخ أنور أحس أن مشكاة المصابيح كتاب نافع، خاصةً لطلبة العلم، وشروحه: "الكاشف عن حقائق السنن" للطيبى، و"مرقاة المفاتيح" لملاّ علي قاري، و"المسير" لشهاب الدين فضل الله بن حسين التور بشتي، نافعة لطلبة العلم، لكن هذه الشروح كانت صعبة، ولا يمكن لطلبة الحديث أن يفهموا حقائق هذه الشرح بسهولة.

فامر الشيخ تلميذه الأرشد أن يلحض علوم هذه الشروح، عارضاً لطلبة العلم بلغة يسيرة وأسلوب سهل وبطريق بليغ. وأدّى الشيخ الكاندهلوي حق هذا الأمر، وامتثل به امتثالا بليغاً، فجزاه الله تعالى أجراً كاملاً.

[1] **التعليق الصبيح**، ج٧، ص ٤٦٣.

مصادر التعليق الصبيح:

منهج الشيخ الكاندهلوي في سائر كتبه بأنه، صنف الكتب بعد الاستفادة من السلف، وجمع علومهم ومعارفهم في كتبهم، كما جمع علوم الحديث والفقه والكلام في كتابه التعليق الصبيح من السلف، واستفاد من الكتب المطبوعة والمخطوطة كما قال الشيخ: "وأكبر عنايتي وغاية اهتمامي في هذا التعليق بشرح الأحاديث، وإبراز نكاتها ولطائفها، وبيان أسرارها ومعارضها، وكشف حقائقها ودقائقها على ما يقتضيه علم المعاني والبيان، بعد تتبع كتب العلماء الراسخين المعروفين لهذا الشأن"[1].

وضع أسس الكتاب على عمد ثلاثة، وجعل كتابه رفيع العماد. فذكر الشيخ في هذا الباب: "وجل اعتمادى في ذلك على شرح المصابيح المسمى بالميسر للشيخ شهاب الدين فضل الله بن حسين التور بشتى الحنفى رحمه الله تعالى، ولعمري! إنه لشرح لطيف، وتصنيف منيف مشتمل على فوائد حسان، ومعانٍ مقصوراتٍ في الخيام، لم يطمسها إنس قبله ولا جان. وعلى شرح المشكاة المسمى بالكاشف عن حقائق السنن المحمدية – على صاحبها ألف ألف صلاة وألف ألف تحية – للمحدث الجليل، أفضل العلماء في زمانه، وأكمل الفضلاء في أوانه، مفسر الكتاب، وشارح السنة، مبين الأحكام، وقامع البدعة، شرف الملة والدين، الحسين بن عبد الله بن محمد الطِّيِّبى الشافعى – طيب الله ثراه، وجعل الجنة مثواه –، ولعمري! ما ترى كتاباً أجمع تحقيقاً منه في بيان حقائق السنة ودقائقها، وإبراز لطائفها ومعارفها، وكشف أسرارها وغوامضها، فيا له! من شرح غريب عزيز المال، لم ينسج ناسج – فيما أظن – على هذا المنوال. واعتمدت في ضبط كلمات الحديث ووجوه الإعراب، وذكر اختلاف النسخ على مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، للمحدث الجليل، والفاضل النبيل، فريد دهره، ووحيد عصره، الشيخ نور الدين على بن سلطان محمد الهروى القاري – رحمه الله تعالى –؛ فإنه شرح لطيف على منهج شريف كافل لضبط الالفاظ مع المباني، والبحث عن الروايات مع المعاني، جمع فيه جميع الشروح والحواشى، واستقصاها، فلم يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، وها أنا معترف بأني اغترفت في هذا التعليق من فضالته، وما سريت ذلك المسري إلا بدلالته وهدايته – فجزاه الله تعالى عني جزاء كثيراً، وأثابه أجراً كبيراً –. ووشحت أبواب هذا التعليق

[1] أيضاً: ١/٤.

بالآيات الكريمة، لتكون مصابيح للمهتدين، ومدارج للسالكين، ومنازل للسائرين، ورياضا للصالحين، ورجوماً للشياطين، ويعلم مصداق الأحاديث في كتاب الله المبين، وسلكت في المسائل الخلافية مسلك الانصاف، متجنباً عن الجور والاعتساف، طاويا كشح المقال عن الإكثار، متحريا للإيجاز والاختصار، مقتصرا من الأقوال على ما ينشرح به الصدر، ويطمئن به القلب، ويستلذه الفكر"[1].

منهج شرح الحديث في المسائل الكلامية:

ألف الشيخ الكاندهلوي هذا الشرح الجليل، وانتهج فيه منهجا فريداً لشرح الأحاديث التي تتعلق بالمسائل الكلامية – كما ذكرنا – والامور الاعتقادية. والشيخ كاندهلوي كان تلميذاً للشيخ أنور شاه الكشميري، والشيخ الكشميري كان محكماً في الفكر، وثبتاً في العقائد، وحجةً في علم الكلام، وظهر في تدريس الشيخ رسوخ علمه، وثبات فكره، وقوة دليله العقلية والنقلية. وهذا المنهج قد انتقل إلى تلميذه الرشيد الشيخ محمد إدريس الكاندهلوي كما انتقلت فيوض أخرى. فالمصنف العلامة والحبر الفهام قد قام نهاره، وسهر ليإليه في مطالعة ما صدر، وألّف هذا الكتاب العظيم رياضاً للصالحين ورجوماً للشياطين.

نموذج البحث عن حقيقة الإيمان:

ولعل من المناسب أن ننقل للسادة القراء نماذج مختارة من المناقشات التي قام بها المؤلف في معالجته للقضايا الكلامية.

ما هي حقيقة الإيمان؟ وهل الإيمان يزيد وينقص؟ أم لا يزيد ولا ينقص؟ هذه الأسئلة مهمة، وعلماء أهل السنة والجماعة والفلاسفة والمعتزلة، كلهم يتكلمون عن هذا الموضوع، ويدافعون آراءهم بالبراهين القاطعة والدلائل النقلية والعقلية. ولا شك في أن هذه المسألة مسألة صعبة جداً، وحينما يقرأ القارئ يحس في فكره بعقدة كالعقدة في الخشبة، أو العُجْرة في الشجرة، لا يمكن أن يعود إلى الحالة الأصلية، لكن الشيخ الكاندهلوي تكلم في هذه المسألة في ضوء علوم الشيخ الشاه ولي الله والشيخ محي الدين ابن عربي والإمام الغزالى. نقدم هذه المسألة بكلمات يسيرة ووجيزة، وبفكر سيغني عن كلام طويل. فبين الشيخ معاني الإيمان بالبراهين والدلائل من القرآن والنسة فقال: (وللإيمان معنيان، أحدهما: تصديق الجنان بما لا بد من

[1] أيضاً: ٦، ١/٥.

تصديقه. وهو قوله ﷺ في جواب جبريل: «الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته» الحديث. والثاني: السكينة والبشاشة والحلاوة والطمانينة التي تحصل للمقربين، وهو قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنزلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمانا مَّعَ إِيمانِهِمْ﴾. فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين، وأنزل جنودا لم تروها، ليخريجكم من الظلمات إلى النور. ﴿أَولَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ وهو قوله ﷺ: «الطهور شطر الإيمان». وقوله ﷺ:«إذا زنى العبد خرج منه الإيمان». وقول معاذ بن جبل: "اجلس بنا نؤمن ساعة". فللإيمان أربعة معانٍ مستعملة في الشرع، إن حملتَ كل حديث من الأحاديث المتعارضة في الباب على محمله اندفعت عنك الشكوك والشبهات" اهـ. كذا في حجة الله البالغة. بتوضيح يسير، فمن قال يزيادة الإيمان ونقصانه، فلعله أراد الإيمان بمعنى التصديق الذي يخرج به المرء عن الكفر والنفاق، ويشترك فيه جميع المؤمنين، أولهم وآخرهم، عوامهم وخواصهم، صالحهم وفاسقهم. فهذا الإيمان الذي اشترك فيه جميع أهل الإيمان، حتى انسلكوا به في سلك واحد – وهو سلك اللأخوة الإيمانية كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾، فهذا الإيمان لا يزيد ولا ينقص، كما أن الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام – مع اختلاف مراتبهم وتفاوت درجاتهم – كلهم انسلكوا في سلك واحد – وهو أخوة النبوة والرسالة، حتى لم يجز التفريق بينهم بالإيمان بهم كما قوله تعالى: ﴿لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِن رُّسُلِهِ﴾، وصاروا بها إخوانا، فكما أن تفاوت مراتب الأنبياء ودرجاتهم بحسب تفاضلهم في الكمالات الزائدة على نفس النبوة والرسالة، لا في نفس النبوة والرسالة، كذلك تفاوت مراتب إيمان المؤمنين واختلاف درجاتهم باعتبار الأوصاف الزائدة على نفس الإيمان، ألا ترى أن الناس مع تفاضلهم في الفضائل والفواضل، وتفاوتهم في المحاسن والشمائل، كلهم مشتركون في الحقيقة الإنسانية، متحدون فيها، فالاشتراك والاتحاد راجع إلى نفس الحقيقة الإنسانية، والتفاضل والتفاوت إنما هو راجع إلى الأوصاف الزائدة على نفس الحقيقة الإنسانية؛ لأن الحقيقة الإنسانية لا تزيد ولا تنقص. فكذلك ينبغى أن يفهم الحقيقة الإيمانية أنها لا تزيد ولاتنقص، وإنما تزداد وتنقص أوصافها وأحوالها، ويتفاوت انجلاء أنوارها وأضوائها، كما أن الْمَرَائي كلها متفقة على الحقيقة المرآتية والماهية الزجاجية، لا تفاوت فيها ولا تفاضل، ولا تزايد فيها ولا تناقص، وإنما التفاوت بحسب الأوصاف الزائدة على نفس الحقيقة، مثل زيادة النورانية والانجلاء وشدة الصقالة والصفاء. هذا ترجمة ما أفاده الإمام الرباني

الشيخ أحمد الفاروقي النقشبندي السرهندي الشهير بمجدد الألف الثاني قدس الله روحه ونور ضريحه. آمين. وقال قدوة العارفين الشيخ محي الدين ابن عربي قدس الله سره: اعلم أن الإسلام عمل، والإيمان تصديق، والإحسان رؤية أو كالرؤية، فالإسلام انقياد، والإيمان اعتقاد، والإحسان إشهاد، فمن جمع هذه النعوت لم ينكر شيئا من تجليات الحق تعالى، حيث يتجلي في الآخرة وينكر بعضهم، كما في حديث مسلم، فكان الحق تجلي له في سائر التجليات وحده، ومن لم يجمع في اعتقاده بين هذه النعوت أنكره ضرروة في كل ما لم يذقه في دار الدنيا ١هـ. فإن قلت: فهل الإيمان يتجزأ أي يتبعض؟ فالجواب أن الإيمان واحد لا يتبعض، حتى يكون جزء منه في مكان في البدن، وجزء منه في مكان آخر، بل نوره منتشر في جميع الأعضاء حتى أنه إذا قطع عضو منه ذهب الإيمان في القلوب لكونه لا يتجزأ والله تعالى أعلم. فإن قلت: فكم ينقسم نور الإيمان على قسم؟ فالجواب: على قسمين كما أن أهله على قسمين، القسم الأول: من آمن من نظر واستدلال وبرهان، فهذا لا يوثق بثبات إيمانه لدورانه مع الدليل، ومثل هذا لا يخالط بشاشة نور إيمانه القلوب؛ لأن لا ينظر إلا من خلف حجاب دليله، وما من دليل من أدلة صاحب النظر إلا وهو معرَّضٌ لحصول الدخل فيه والقدح؛ ولو بعد حين، فلهذا لا يمكن صاحب البرهان أن يخالط بشاشة الإيمان قلبه للحجاب الذي بينه وبينه. والقسم الثاني: من كان برهانه حين حصول الإيمان في قلبه لأمر آخر ضروري، وهذا هو الإيمان الذي يخالط بشاشة القلوب، ولا يتصور في حق صاحبه شك؛ لأن الشك لا يجد محلا يعمره؛ فإن فعله الدليل، وما ثَمَّ دليل، فما ثَمَّ ما يَرِدُ عليه الدخل ولا الشك. ذكره الشيخ في الباب الثالث والسبعين. فإن قلت: فما الوجه الجامع بين قول بعضهم: الإيمان لا يزيد ولا ينقص وبين قول الجمهور: إنه يزيد وينقص؟ فالجواب: الوجه الجامع بينهما أن يحمل قول من قال: إنه لا يزيد ولا ينقص على إيمان الفطرة، ويحمل قول من قال: إنه يزيد وينقص على ما بين الفطرة إلى طلوع الروح؛ فإن كل إنسان لا يموت إلا على ما فطر عليه. وإيضاح ذلك أن الإيمان الأصلي الذي لا يزيد ولا ينقص هو الفطرة التي فطر الله الناس عليها، وهو شهادتهم له بالوحدانية عند أخذ الميثاق، فكل مولود يولد على ذلك الميثاق، ولكنه لما حصل في حصر الطبيعة في هذا الجسم الذي هو محل النسيان، جهل الحالة التي كان عليها مع ربه ونسيها، فافتقر إلى النظر في الأدلة على وحدانية خالقه، إذا بلغ الحال التي يعطيها النظر؛ وإن لم يبلغ إلى هذا الحد كان

حكمه حكم والديه، فما نظر العبد في الأدلة إلا ليرجع إلى الحالة التي كان عليها عند أخذ الميثاق، كالذي يكون مسافراً والسماء مصحية، وهو يعرف جهة القلبه وصوب مقصده، فحصل له سحاب وغيم حتى صار لا يعرف جهة مقصده ولا القبلة، ومثل هذا يجب عليه الاجتهاد. فافهم كذا في اليواقيت والجواهر. قال الإمام الغزالى رحمه الله تعالى: اختلفوا في أن الإسلام هو الإيمان أو غيره، وإن كان غيره فهل هو منفصل عنه أو لازم له؟ والحق أن الشرع قد ورد باستعمالهما على سبيل الترادف والتوارد، وورد على سبيل الاختلاف، وورد على سبيل التداخل ... أما الترادف ففي قوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ۞ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ و لم يكن بالاتفاق إلا بيت واحد. وقال تعالى: ﴿يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴾. وأما الاختلاف فقوله تعالى: ﴿قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾ فأراد بالإيمان التصديق بالقلب، وبالإسلام الانقياد والاستسلام ظاهرا باللسان والجوارح. وأما التداخل فما روي أنه عليه الصلاة والسلام سئل فقيل: أي الأعمال أفضل؟ فقال: «الإسلام». فقال: أي الإسلام أفضل؟ فقال ﷺ: «الإيمان». والمراد بالاختلاف هو أن يجعل الإيمان عبارة عن التصديق بالقلب فقط، والإسلام عبارة عن التسليم ظاهراً كما أمر في قوله تعالى: ﴿قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا﴾ الآية. وأما التداخل فهو أن يجعل الإسلام عبارة عن التسليم بالقلب، والعمل بالأركان. ويجعل الإيمان عبارة عن التسليم بالقلب كما ورد في جوابه ﷺ السائل: أي الإسلام أفضل؟ قال: «الإيمان»[1].

منهج شرح عقيدة الإيمان بالقدر:

هل الإنسان قادر على كل ما أراد، أو عاجز عنه، والله تعالى هو الذي يفعل ما يشاء، وهذه هي صفة خاصة برب العالمين، أم للإنسان حظ فيه، كما في صفات أخرى كالعلم والسمع والبصر وغير ذلك؟ تكلم الشيخ محمد إدريس فيه كلاماً مبسطاً وبحثاً بليغاً، فبين معنى القدر والقضاء عن الراغب الأصفهاني، والفرق بين القضاء والقدر في ضوء فكر ابن حجر مؤلف فتح الباري والعلأمة العينى مؤلف عمدة القاري، ثم قدم تلخيص آراء العلامة الزبيدى تلخيصاً جامعاً، ونحن ننقل هنا عبارة الشيخ نفسه للاستفادة.

[1] أيضاً: ١٣،١٤/١.

اتفق أهل السنة والجماعة على أن صانع العالم جل وعلا مريد لجميع الكائنات من خير وشر، وإيمان وكفر، ضرورة أنه جل وعلا فاعل لكل شيء، فلا يجري في الملك والملكوت طرفة عين، ولا فلتة خاطر، إلا بقضاء الله تعالى وقدره، وبأرادته ومشيئته، ومنه الخير والشر، والنفع والضرر، والإسلام والكفر، والعرفان والنكران، والفوز والخسارة، والهداية والغواية، والطاعة والعصيان، والإيمان والشرك، لا راد لقضائه، ولا معقب لحكمه، يضل من يشاء ويهدي من يشاء، لا يسئل عما يفعل وهم يسألون، ويدل عليه قول الأمة قاطبة، سلفها وخلفها، ما شاء الله كان ومالم يشأ لم يكن. والمعتزلي يقول: ما شئت كان وما شاء الله لم يكن. وقول الله عزو جل: ﴿أَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا﴾ أي لكنه شاء هداية بعض وإضلال بعض. وكذا لك قوله تعالى: ﴿فَلَوْ شَاء لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾. وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاء رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾. وقوله تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ اللّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلاَمِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً﴾ وفيه تصريح بتعلق إرادته بالهداية والإضلال. وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاء رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً﴾ وفيه دليل على كمال قدرته ونفوذ مشئيتة، أنه لو شاء لآمن من في الأرض كلهم جميعاً، فلا يبقى فيها إلا مؤمن موحد، ولكنه شاء أن يؤمن به من علم منه اختيار الإيمان به، وشاء أن لا يؤمن به من علم أنه يختار الكفر ولا يؤمن به كما في اليسير. وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إليهمُ الْمَلائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلاً مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللّهُ﴾ وفيه دليل على أن الآية؛ وإن عظمت، فإنها لا تحظر إلى الإيمان. وقوله تعالى: ﴿يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾. وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللّهُ﴾ وفيه دليل على أن الكفر بمشيئة الله تعالى، فقد خاف شعيب عليه الصلاة والسلام أن يكون سبق منه زلة أو تقصير، يقع منه الاختيار لذلك، فيشاء الله ذلك؛ وإن كانوا معصومين، لكنهم خافوا ذلك، وكان خوفهم أكثر من خوف غيرهم كما في اليسير والتأويلات الماتريدية. وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ من بَعْدِك﴾، وقوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَلا يَنفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ﴾ وهو دليل على أن إرادة الله يصح تعلقها بالإغواء. وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا﴾ ويدل عليه من جهة العقل أن المعاصي والجرائم إن كان الله يكرهها ولا يريدها، وإنما هي جارية على وفق إرادته. عدو الله إبليس — لعنه الله – مع أنه عدو لله سبحانه وتعالى، والجاري على وفق إرادة

العدو أكثر من الجاري على وفق إرادته تعالى، فليت شعري! كيف يستجيز المسلم أن يرد ملك الجبار ذي الجلال والإكرام إلى رتبة، ولو ردت إليها رياسة زعيم خيمة لاستنكف منها؛ إذ لو كان ما يستمر لعدو الزعيم في القرية أكثر مما يستقيم له لاستنكف من زعامته، وتبرأ عن ولايته، والمعصية هي الغالبة على الخلق، وكل ذلك جار عند المعتزلة على خلاف إرادة الحق تعالى، وهذا غاية الضعف والعجز، تعالى رب الأرباب من قول الظالمين غلواً كبيراً.

وحاصله أن العقول قد قضت بأن قصور الإرادة وعدم نفوذا المشيئة من أصدق الآيات الدالة على سمات النقص والاتصاف بالقصور والعجز. ومن ترسم للملك ثم كان لا ينفذ مراده في أهل مملكته عدّ ضعيفاً قاصراً عاجزاً، فإن كان ذلك يزري بمن ترسم للملك فكيف يجوز في صفة ملك الملوك ورب الأرباب، فإن أكثر أفعال العباد واقعة على ما يدعو إليه الشيطان ويريده، والطاعات التي يدعو إليها الله تعالى ويريدها هي الأقل، فإذا كان الأكثر واقعا على خلاف مراد الله تعالى اقتضى ذلك نقصاً في الملك وقصوراً وعجزاً، وهذا هو المحتج به في الوحدانية، وقد نقضه المعتزلة؛ إذ قالوا: إن الله يريد الإيمان والطاعة ولا يقع مراده، والعبيد يريدون الكفر والعصيان ويقع مرادهم"[1].

منهج الشيخ الكاندهلوي في شرح الأحاديث الفقهية:

يذكر الشيخ الكاندهلوي مباحث المسائل الفقهية وآراء العلماء حولها دون تعصب لمذهب خاص، ثم يسرد أدلة الفقهاء حينما يذكر المسائل التي اختلف فيها الفقهاء، ثم يرجح المذهب الراجح عنده، مراعيا العدل، وملاحظا قربة بالكتاب والسنة. كما قال الشيخ: "وسلكت في المسائل الخلافية مسلك الإنصاف، متجنبا عن الجوز والاعتساف، طاويا كشح المقال عن الإكثار، متحريا للإيجاز والاختصار، مقتصراً من الأقوال على ما ينشرح به الصدر، ويطمئن به القلب، ويستلذه الفكر".

اختار الشيخ هذا الأسلوب في شرح الحديث في المسائل الخلافية تماماً، فعلى سبيل المثال يقول شارحا لقوله عليه الصلاة والسلام: «يا معشر النسآء تصدقن ولو من حليكن»: "قال المظهري: يعني أخرجن زكاة أمو الكن حتى من حليكن. وبهذا قال أبو حنيفة، وهو أحد قولي الشافعي – رحمه الله تعالى –. وأما مالك وأحمد والشافعي – في أظهر قوليه – لا يوجبون

[1] أيضاً: ٦٩، ١/٦٨.

الزكاة في الحلي المباح١هـ. وقال الحفاظ العيني رحمه الله تعالى: أما مسألة الحلي ففيها خلاف بين العلماء، فقال أبو حنيفة وأصحابه والثوري: تجب فيها الزكاة. وروي ذلك عن عمر بن الخطاب وعبد الله ابن مسعود وعبد الله بن عمر وعبد الله بن عباس رضي الله عنه تعالى عنهم. وبه قال سعيد بن المسيب وسعيد جبير وعطاء ومحمد بن سيرين وجابر بن زيد ومجاهد والزهري وطاوس وميمون بن مهران والضحاك وعلقمة والأسود وعمر بن عبد العزيز وذر الهمداني والأوزاعي وابن شبرمة والحسن بن حي. وقال ابن المنذر وابن حزم: الزكاة واجبة بظاهر الكتاب والسنة. وقال مالك وأحمد وإسحاق والشافعي – في أظهر قوليه –: لا تجب الزكاة فيها. وروي ذلك عن ابن عمر وجابر بن عبد الله وعائشة والقاسم بن محمد والشعبي. وكان الشافعي يفتي بهذا في العراق وتوقف بمصر، وقال: هذا مما أستخير الله فيه. وقال الليث: ما كان من حلي يلبس ويعار فلا زكاة فيه، وإن اتخذ للتحرز عن الزكاة ففيه الزكاة. وقال أنس: يزكى عاما واحدا لا غير.

(واستدل من أسقط الزكاة) بحديث جابر عن النبي ﷺ أنه قال: «ليس في الحلي زكاة» ذكره في الإمام. وعن جابر: أنه كان يرى الزكاة في كثير الحلي دون قليلها. وروى عبد الرزاق: أخبرنا عبيد الله، عن نافع، عن ابن عمر قال: "الزكاة في الحلي". وروى مالك في الموطأ عن عبد الرحمن، عن القاسم، عن أبيه، عن عائشة: كانت تلي بنات أخيها يتامى في حجرها، فلا تخرج من حليهن الزكاة. وأخرج الدارقطني عن شريك عن علي بن سليمان قال: سألت أنس بن مالك عن الحلي؟ فقال: "ليس فيه زكاة". وروى الشافعي، ثم البيهقي من جهته، أخبرنا سفيان عن عمرو بن دينار قال: سمعت ابن خالد يسأل جابر بن عبد الله عن الحلي: أفيه الزكاة؟ فقال جابر: "لا؛ وإن كان يبلغ الف دينار". وأخرج الدار قطني من حديث هشام بن عروة عن فاطمة بنت المنذر عن أسماء بنت أبي بكر: أنها كانت تحلي بناتها الذهب، ولا تزكيه، نحواً من خمسين ألف".

(واحتج من رأى فيها الزكاة) بحديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن امرأة أتت رسول الله ﷺ ومعها بنت لها، وفي يد ابنتها مسكتان غليظتان من ذهب، فقال لها: «أتعطين زكاة هذا»؟ قالت: لا. قال: «أيَسُرُّكِ أن يُسَوِّرك الله بها يوم القيامة سوارين من نار»؟! قال: فخلعتهما فألقيتهما إلى النبي ﷺ وقالت: هما لله ولرسوله". رواه أبو داؤد والنسائي وقال: "ولا

يصح في هذا الباب شيء". قلت: قال ابن القطان في كتابه: "إسناده صحيح". وقال الحافظ المنذري: "إسناده لا مقال فيه؛ فإن أبا داود رواه عن أبي كامل الحجدري وحميد بن مسعدة، وهما من الثقات احتج بهما مسلم، وخالد بن الحارث إمام فقيه احتج به البخاري ومسلم، وكذلك حسين بن ذكوان المعلم احتجا به في الصحيح، ووثقه ابن المديني وابن معين وأبو حاتم، وعمرو بن شعيب ممن قد علم، وهذا إسناد يقوم به الحجة إن شاء الله تعالى. (فإن قلت): أخرج الترمذي من حديث ابن لهيعة عن عمرو بن شعيب عن جده قال: "أتت امرأتان إلى رسول الله ﷺ وفي أيديهما سواران من ذهب فقال لهما: «تؤديان زكاة هذا؟» قالتا: لا. فقال: «أتحبان أن يسوركما الله بسوارين من نار؟» قالتا: لا. قال: «فأديا زكاته» وقال الترمذي: "ورواه ابن المثنى بن الصباح عن عمرو بن شعيب نحو هذا، وابن لهيعة وابن الصباح يضعفان في الحديث، ولا يصح في هذا الباب عن النبي ﷺ شيء"؟ قلت: "قال المنذري: لعل الترمذي قصد الطريقين الذين ذكرهما، وإلا فطريق أبي داؤد ولا مقال فيه.

(واحتجوا) أيضا بحديث عائشة رضي الله تعالى عنها رواه أبو داؤد من حديث عبد الله بن شداد بن الهاد أنه قال: دخلنا على عائشة زوج النبي ﷺ فقالت: دخل على رسول الله ﷺ فرأى في يدي فتخات من ورق، فقال: «ما هذا يا عائشة؟» فقلت: صنعتهن أتزين لك يا رسول الله. قال: «أتؤدين زكاتهن؟» قلت: لا أو ما شاء الله. قال: «هو حسبك من النار» وأخرجه الحاكم في مستدركه وقال: "صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه". قلت: الحديث على شرط مسلم، ولا يلزم من قول الترمذي: "لا يصح في هذا الباب عن النبي ﷺ شيء" أن لا يصح عند غيره فافهم.

(واحتجوا) أيضا بحديث أسماء بنت يزيد أخرجه أحمد في مسنده حدثنا علي بن عاصم، عن عبد الله بن عثمان بن خيثم، عن شهر بن حوشب، عن أسماء بنت يريد قالت: "دخلت أنا وخالتي على النبي ﷺ وعلينا أسورة من ذهب، فقال لنا: «أتعطيان زكاتها؟» فقلنا: لا. قال: «أما تخافان أن يسوركما الله أسورة من نار، أديا زكاتها». فإن قلت: قال ابن الجوزي: وعلي بن عاصم رماه يزيد بن هارون بالكذب، وعبد الله بن حيثم قال ابن معين: أحاديثه ليست بالقوية، وشهر بن حوشب قال ابن عدي: لا يحتج بحديثه؟ قلت: ذكر في الكمال: وسئل أحمد عن علي بن عاصم فقال: هو والله عندي ثقة وأنا أحدث عنه. وعبد الله بن خيثم قال ابن

معين: هو ثقة حجة. وشهر بن حوشب قال أحمد: ما أحسن حديثه ووثقه، وعن يحيى: هو ثقة، وقال أبو زرعة: هو لا بأس به. فظهر من هذا كله سقوط كلام ابن الجوزي، وصحة الحديث".

(واحتجوا) أيضا بحديث فاطمة بن قيس رواه الدار قطني في سننة عن نصر بن مزاحم عن أبي بكر الهذلي أخبرنا شعيب بن الحجاب عن الشعبي قال: سمعت فاطمة بنت قيس تقول: "أتيت النبي ﷺ بطوق، فيه سبعون مثقالا من ذهب، فقلت: يا رسول الله! خذ منه الفريضة. فأخذ منه مثقالا وثلاثة أرباع مثقال". وقال الدرا قطني: أبو بكر الهدلي متروك، لم يأت به غيره.

(واحتجوا) أيضا بحديث أم سلمة أخرجه أبو داؤد جدثنا محمد بن عيسى، حدثنا عتاب، عن ثابت بن عجلان، عن عطاء، عن أم سلمة قالت: "كنت ألبس أوضاحاً من ذهب، فقلت: يا رسول الله! أكَنْزٌ هو؟ فقال: «ما بلغ أن تؤدى زكاته فزكي، فليس بكنْز»، وأخرجه الحاكم أيضا في مستدركه وقال: "صحيح على شرط البخاري ولم يخرجاه"، ولفظه: «إذا أديتِ زكاته فليس بكنْز». فإن قلت: رواه البيهقي وقال: تفرد به ثابت بن عجلان. وقال ابن الجوزي في التحقيق: محمد بن مهاجر قال ابن حبان: يضع الحديث على الثقات؟ قلت: قال في تنقيح التحقيق: لا يضر تفرد ثابت به؛ فإنه روى له البخاري، ووثقه ابن معين، وقال فيه أيضا: الذي قيل في محمد بن مهاجر وهمٌ؛ فإن محمد بن مهاجر الكذاب ليس هو هذا، فهذا الذي يروي عن ثابت بن عجلان ثقة شامي أخرج له مسلم في صحيحه، ووثقه أحمد وابن معين وأبو زرعه ودحيم وأبو داؤد وآخرون، وذكر ابن حبان في الثقات وقال: كان متقنا. وأما محمد بن مهاجر الكذاب فإنه متأخر. وعتاب بشير وثقه ابن معين.

وأما حديث جابر الذي احتجت فيه الفرقة الأولى فقد قال البيهقي: "فهو حديث لا أصل له، وفيه عافية بن أيوب وهو مجهول، فمن احتج به مرفوعا كان مغروراً بدينه، داخلا فيما نعيب به المخالفين من الاحتجاج برواية الكذابين". قلت: هذا غريب من البيهقي مع تعصبه للشافعي. وقال سبط ابن الجوزي: هو حديث ضعيف مع أنه موقوف على جابر (كذا في عمدة القاري). وقال الإمام الرازي رحمه الله تعالى في التفسير الكبير: الصحيح عندنا وجوب الزكاة في الحلى، والدليل عليه قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ﴾ الآية. وأيضا

العمومات الواردة في إيجاب الزكاة موجودة في الحلى المباح، قال عليه الصلاة والسلام: «هاتوا ربع عشر أموالكم» وقال: «في الرقة ربع العشر» وغير ذلك من الأخبار والآثار- فهذه الآية مع جميع الأخبار توجب الزكاة في الحلي المباح، ثم نقول: ولم يوجد لهذا الدليل معارض من الكتاب، وهو ظاهر؛ لأنه ليس في القرآن ما يدل على أنه لا زكاة في الحلي، ولم يوجد في الأخبار أيضا معارض. إلا أن أصحابنا نقلوا فيه خبرا، وهو قوله عليه الصلاة والسلام: «لا زكاة في الحلي المباح» إلا أن أبا عيسى الترمذي قال: لم يصح عن رسول الله ﷺ في الحلي خبر صحيح، وأيضاً بتقدير أن يصح هذا الخبر فنحمله على اللآلي لأنه عليه الصلاة والسلام قال: «لا زكاة في الحلي»، ولفظ الحلي مفرد محلى بالألف واللام، وقد دللنا على أنه لو كان هناك معهود سابق، وجب انصرافه إليه، والمعهود في القرآن في لفظ الحلي اللآلي . قال تعالى: ﴿وَتَسْتَخْرِجُواْ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾، وإذا كان كذلك انصرف لفظ الحلي إلى اللآلي، فسقطت دلالته، وأيضاً الاحتياط في القول بوجوب الزكاة، وأيضاً لا يمكن معارضة هذا النص بالقياس؛ لأن النص خير من القياس، فثبت أن الحق ما ذكرناه والله أعلم" اهـ كلامه في التفسير.

ويدل على وجوب الزكاة في الحلي من جهة النظر أن الذهب والفضضة يتعلق وجوب الزكاة فيهما بأعيانهما في ملك من كان من أهل الزكاة، لا بمعنى ينضم إليهما، والدليل عليه أن النُّقَرَ والسبائك تجب فيها الزكاة، وإن لم تكن مرصدة للنماء، وفارقا بهذا غيرهما من الأموال؛ لأن غيرهما لا تجب الزكاة فيهما بوجود الملك، إلا أن تكون مرصدة للنماء، فوجب أن لا يختلف حكم المصوغ والمضروب. وأيضا لم يختلفوا أن الحلي إذا كان في ملك الرجل تجب فيه الزكاة، فكذلك إذا كان في ملك المرأة كالدراهم والدنانير. وأيضا لا يختلف حكم الرجل والمرأة فيما يلزمهما من الزكاة، فوجب أن لا يختلفا في الحلي والله أعلم (كذا في كتاب الاحكام للامام الجصاص رحمه الله تعالى). وفي المعالم للخطابي أبي الظاهر: "من الكتاب يشهد لقول من أوجبها، والأثر يؤيده والاحتياط"[1].

أقام الشيخ الخطيب في كتابه مشكاة المصابيح "باب الربا" ونقل فيه الأحاديث النبوية – على صاحبها ألف ألف تحية وتسليم – فقبل شرح هذه الأحاديث ذكر الشيخ الكاندهلوي معنى الربا لغة وشرعاً، وأشار إلى قباحته وحرمته من كتاب الله عزوجل، ومن الأحاديث

[1] أيضاً:

النبوية – على صاحبها التحية – وذكر في هذا البحث علة تحريم الربا وآراء العلماء فيها، واستدلال الفقهاء في هذا الأمر. نذكر هذا البحث بألفاظ الشيخ؛ لأنه بحث لطيف، ونافع للقارئ، ومفهماً للباحث، فقال الشيخ:

"قال الله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً﴾. وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لا يَقُومُونَ إِلا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾ وقال الله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ ۞ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لا تَظْلِمُونَ وَلا تُظْلَمُونَ﴾ وهو مقصور واصله الزيادة والمادة حيث تصرف لذلك قال الله تعالى: ﴿وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾ أي علت وارتفعت وقال تعالى: ﴿أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ﴾ أي أكثر وازيد عددا وقال سبحانه: ﴿كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ﴾ أي بمكان عال مرتفع وقال تعالى: ﴿وَمَا آتَيْتُم مِّن رِّبًا لِيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ﴾ فهو من ربا يربو، وهو يكتب بالألف لكونه مقصورا، وبالياء لكسرة أوله، وكتبوه في المصحف بالواو (كذا في اللمعات).

اعلم أن الربا نوعان: جلي وخفي. (فالجلي) حرم لما فيه من الضرر العظيم. (والخفي) حرم لأنه ذريعة إلى الجلي، فتحريم الأول قصدا، وتحريم الثاني وسيلة. (فأما الجلي) فربا النسيئة، وهو الذي كانوا يفعلونه في الجاهلية، مثل أن يؤخر دينه ويزيده في المال، وكلما أخره زاد في المال حتى تصير المائة عنده آلافا مؤلفة، وفي الغالب لا يفعل ذلك إلا معدم محتاج، فإذا رأى أن المستحق يؤخر مطالبته، ويصبر عليه بزيادة ببذلها تكلف بذلها، ليفتدى من أسر المطالبة والحبس، ويدافع من وقت إلى وقت فيشتد ضرره، وتعظم مصيبته، ويعلوه الدين حتى يستغرق جميع موجوده، فيربو المال على المحتاج من غير نفع يحصل، ويزيد مال المرابي من غير نفع يحصل منه لأخيه، فيأكل مال أخيه بالباطل، ويحصل أخوه على غاية الضرر، فمن رحمة أرحم الراحمين وحكمته وإحسانه إلى خلقه أن حرم الربا، ولعن آكله وموكله وكاتبه وشاهده، وآذن من لم يدعه بحرب مع الله ورسوله، ولم يجئ مثل هذا الوعيد في كبيرة غيره، ولهذا كان من أكبر الكبائر. (وسئل الإمام أحمد) عن الربا الذي لا شك فيه فقال: هو أن يكون له دين فيقول له: أتقضي أم تربي؟ فإن لم يقضه زاده في المال، وزاده هذا في الأجل، وقد جعل الله سبحانه وتعالى الربا ضد الصدقة، فالمرابي ضد المتصدق قال الله تعالى: ﴿يَمْحَقُ اللّهُ الْرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ﴾

وقال تعالى: ﴿وَمَا آتَيْتُم مِّن رِّباً لِّيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُو عِندَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ﴾، فنهى الله سبحانه وتعالى عن الربا الذي هو ظلم للناس، وأمر بالصدقة التي هي إحسان إليهم. وفي الصحيحين من حديث ابن عباس عن أسامة بن زيد أن رسول الله ﷺ قال: «إنما الربا في النسيئة». ومثل هذا يراد به حصر الكمال، وإن الربا الكامل إنما هو في النسيئة كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ إلى قوله: ﴿أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقّاً﴾ وكقول ابن مسعود: "إنما العالم الذي يخشى الله".

(وأما ربا الفضل) فتحريمه من باب سد الذرائع كما صرح به في حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ: «لا تبيعوا الدرهم بالدرهمين فإني أخاف عليكم الرما» والرما هو الربا. فمنعهم من ربا الفضل لما يخافه عليهم من ربا النسيئة، وذلك أنهم إذا باعوا درهما بدرهمين، ولا يفعل هذا إلا للتفاوت الذي بين النوعين، إما في الجودة، وإما في السكة، وإما في الثقل والخفة وغير ذلك، تدرجوا بالربح المعجل فيها إلى الربح المؤخر، وهو عين ربا النسيئة، وهذه ذريعة قريبة جدا، فمن حكمة الشارع أن سد عليهم هذه الذريعة. ومنهم من يبيع درهما بدرهمين نقدا ونسيئة. فهذه حكمة معقولة مطابقة للعقول، وهي تسد عليهم باب المفسدة (كذا في إعلام الموقعين). وقال حجة الله على العالمين الشهير بولي الله بن عبد الرحيم قدس الله سره: "اعلم أن الربا على وجهين (حقيقي) و(محمول عليه). (أما الحقيقي) فهو في الديون، وقد ذكرنا أن فيه قلبا لموضوع المعاملات، وأن الناس كانوا منهمكين في الجاهلية أشد انهماك، وكان حدث لأجله محاربات مستطيرة، وكان قليله يدعو إلى كثيره، فوجب أن يسد بابه بالكلية، ولذلك نزل القرآن في شأنه ما نزل. (والثاني) ربا الفضل، والأصل فيه الحديث المستفيض «الذهب بالذهب» الحديث، وهو مسمى بربا تغليظا وتشبيها له بالربا الحقيقي، وبه يفهم معنى قوله ﷺ: «لا ربا إلا في النسيئة» (أي القرض والدين)، ثم كثر في الشرع استعمال الربا في هذا المعنى، حتى صار حقيقة شرعية فيه أيضا والله أعلم".

وذكر الشيخ الكاندهلوي علة تحريم الربوا شارحاً لحديث أبي سعيد الخذري وأبي هريرة: "إنا لنأخذ الصالح من هذا بالصاعين" وقال كما يلي: "قال العبد الضعيف عفا الله عنه: قال الله عز وجل: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِين ۞ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُواْ عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۞ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُون﴾ فهذا تهديد شديد، ووعيد أكيد على نقص المكيال والميزان خفية وتدليسا

– نسأل الله تعالى العافية منه – كما أمرهم الله تعالى في معاملتهم الناس بأن يوفوا الكيل والميزان في قوله تعالى: ﴿وَأَوْفُواْ الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لاَ نُكَلِّفُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا﴾. وفي كتاب الجامع لأبي عيسى الترمذي من حديث الحسين بن قيس عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله ﷺ لأصحاب الكيل والميزان: «إنكم وليتم أمرا هلكت فيه الأمم السابقة قبلكم» ثم قال: "لا نعرفه مرفوعاً إلا من حديث الحسين، وهو ضعيف في الحديث، وقد روي بإسناد صحيح عن ابن عباس موقوفا. وقال تعالى إخبارا عن شعيب الذي يقال له خطيب الأنبياء لفصاحة عبارته وجزالة موعظته: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُواْ الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلاَ تَبْخَسُواْ النَّاسَ أَشْيَاءهُمْ وَلاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾، فذكر الكيل والوزن في هذه الآيات، والأمر بإيفائهما والنهي عن بخسهما يقوي التعليل بالكيل والوزن، وروى الدارقطني عن أنس ﷺ أن النبي ﷺ قال: «ما وزن مثل بمثل إذا كان نوعاً واحداً، وما كيل فمثل ذلك، فإذا اختلف النوعان فلا بأس به» انتهى. فهذا أصرح وأنص وأدل على ما قال به إمامنا أبو حنيفة رحمه الله تعالى. وأخرج الإمام الطحاوي رحمه الله تعالى عن عبادة بن الصامت قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الذهب بالذهب وزنا بوزن، والفضة بالفضة وزنا بوزن، والبر بالبر مثلا بمثل» وفي رواية عنه ﷺ: «والبر بالبر كيلا بكيل» الحديث. وعن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال: «لا تبيعوا الذهب بالذهب، ولا الورق بالورق، إلا وزنا بوزن، مثلا بمثل، سواء بسواء». وعن عمر بن الخطاب ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «الذهب بالذهب وزنا بورزن مثلاً بمثل، فمن زاد فهو ربا». وعن فضالة بن أبي عبيد قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تبيعوا الذهب بالذهب إلا وزنا بوزن». وعن أبي قيس قال: كتب أبو بكر الصديق ﷺ إلى أمراء الأجناد حين قدم الشام: أما بعد! فإنكم قد هبطتم أرض الربا، فلا تتبايعوا الذهب بالذهب إلا وزنا بوزن، ولا الورق بالورق إلا وزنا بوزن، ولا الطعام بالطعام إلا كيلا بكيل"، قال أبو قيس: قرأت كتابه (كذا في شرح معاني الآثار). هذه الروايات كلها تدل على أن علة الربا في الأصناف إنما هو الكيل والوزن واتحاد الجنس. وفي صحيح مسلم: «إذا اختلفت هذه الأصناف فبيعوا كيف شئتم». وفي النسائي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «التمر بالتمر، والحنطة بالحنطة، والشعير بالشعير، والملح بالملح، يدا

بيد، فمن زاده فقد أربى، إلا ما اختلفت ألوانه» أي أنواعه. وقال القاضي أبو الوليد رحمه الله تعالى: "أما الحنفية فعمدتهم في اعتبار المكيل والموزون أنه ﷺ لما علق التحليل باتفاق الصنف، واتفاق القدر، وعلق التحريم باتفاق الصنف واختلاف القدر في قوله ﷺ لعامله بخير من حديث أبي سعيد وغيره: «إلا كيلا بكيل، يدا بيد» رأوا أن التقدير، أعني الكيل أو الوزن، هو المؤثر في الحكم كتأثير الصنف، وربما احتجوا بأحاديث ليست مشهورة، فيها تنبيه قوي على اعتبار الكيل والوزن، منها أنهم رأوا في بعض الأحاديث المتضمنة على المسميات المنصوص عليها في حديث عبادة ﷺ زيادة، وهي: «كذلك ما يكال ويوزن». وفي بعضها: «وكذلك المكيال والميزان»، وهذا نص لو صحت الأحاديث، ولكن إذا تؤمل الأمر من طريق المعنى ظهر، والله أعلم أن علتهم أولى العلل والله أعلم".

منهج المباحث في التصوف:

ومن أهم خصائص منهج الشيخ أنه كان يرغب في مباحث التصوف، كما ظهر منهجه في مباحث العقيدة، ومسائل الفقه.

واستنبط الشيخ من الأحاديث المباركة نكتا لطيفة على ترقيق القلوب، والتزهيد في الدنيا، والترغيب في الآخرة.

نقل الخطيب في باب الرفق والحياء وحسن الخلق حديثاً رواه عمران بن حصين عن النبي ﷺ قال: «الحياء لا يأتي إلا بخير». وفي رواية: «الحياء خير كله» متفق عليه، فشرح الشيخ هذا الحديث شرحاً وجيزاً وجامعاً، وبين المناسبة بين الخير والحياء، ويصل إلى نتيجة أن الحياء لا ينفك عن الإيمان. وهو بألفاظ الشيخ كما يلي:

"قوله: «الحياء لا يأتي إلا بخير» أي لا يغري الإنسان إلا بخير، والحياء تغير وانكسار، يعتري الإنسان من خوف ما يعاب به ويذم. ذكره الطيبي. وقال النووي: "قد يشكل على بعض الناس هذا الحديث من حيث إن صاحب الحياء قد يستحي أن يواجه بالحق من يجله، فيترك أمره بالمعروف، ونهيه عن المنكر، وقد يحمله الحياء على الإخلال ببعض الحقوق وغير ذلك مما هو معروف في العادة؟ وجواب هذا ما أجاب به جماعة من الأئمة منهم الشيخ أبو عمرو بن الصلاح رحمه الله: أن هذا المانع الذي ذكرناه ليس بحياء حقيقة، بل هو عجز وخور، وتسميته حياء بحسب اللغة، وإنما حقيقة الحياء في اصطلاح أهل الشرع خلق يبعث على ترك القبيح، ويمنع من التقصير في حق ذي الحق". قال الطيبي: "ويمكن أن يحمل التعريف فيه على

العهد، ويكون إشارة إلى ما ورد في قوله ﷺ من الاستحياء من الله أن يحفظ الرأس وما وعى، والبطن وما حوى الحديث"١هـ، وهو معنى حسن وقيد مستحسن يزول به الإشكال السابق، وبيان أن الحياء من الله هو الذي خير كله، وهو الذي لا يأتي إلا بخير، وهو الذي لا ينفك عن الإيمان. وأما الحياء من الخلق فالغالب فيه أيضا أن يكون محموداً، فالحصر ادعائي، أو كله محمود إلا إذا عارضه ترك الحياء من الله، فيترك جانبه من أداء الحقوق، ويراعي جانب المخلوق، فحينئذ يستحق ذلك الحياء أن لا يسمى حياءً، فالحياء كله خير. والله أعلم".

آراء العلماء والباحثين فيه:

صنف الشيخ محمد إدريس الكاندهلوي – رحمه الله تعالى رحمةً واسعةً – كتباً عديدةً في علم التفسير، والحديث، والسيرة النبوية، والكلام، لكن بذل أكثر عمره في تدريس الحديث والتأليف فيه، حتى صار علم الحديث بمثابة مضجعه ومثواه. وصنف التعليق الصبيح شرحاً بسيطاً، يشتمل على شرح الحديث معنى ولغة، وعلى استنباط الأحكام وفقه الحديث، فاستفاد أهل العلم منه وأثنوا عليه. ونذكر هنا في السطور القادمة آراء العلماء والمحدثين على التعليق الصبيح.

١– بهجة البيطار[١]:

"هو تصنيف الأستاذ الجليل العالم العامل الفقيه المحدث الباحث النظار، الشيخ محمد إدريس الكاندهلوي، نزيل دمشق الآن، وهو من أجلاء الهند، وشرحه هذا يقع في نحو خمسة مجلدّات أو أكثر بالقطع الكامل، وقد تفضل صديقي المؤلف – حفظه الله تعالى – بإهدائي الأول والثاني منه، اللذين تم طبعهما بدمشق على ورق أبيض ناصع، مشكولَيْ المتن، وشرحه يبلغ نحو ضعفيه ... وأقول: إن المؤلف – حفظه الله تعالى – قد هضم نفسه، وأعطى شرحه حقه، فالمراجعة التي استند إليها، وأقام نهاره وأسهر ليله في مطالعتها، هي كثيرة، وما في المقدمة هو قليل منها، ولو بسطها وذكر أسماءها في طليعة التعليق، لعلم القارئ كم بذل في سبيله من الجهود، وكم أنفق من الأوقات، فقد نقل عن حكماء الإسلام كحجة الإسلام الغزالي، وابن رشد، وحماة السنة كشيخي الإسلام ابن تيمية وابن قيم الجوزية، وشراحها كالحافظ ابن حجر العسقلاني والقسطلاني، ومشاهير الصوفية كالشيخ محي الدين ابن عربي – رحمه الله تعالى–،

[١] الشيخ بهجة كان عالماً كبيراً وكان عضواً لمجمع العلمي العربي بدمشق.

والعارف الشعراني – رحمه الله تعالى –، وغرض المؤلف من الأخذ عن المحدثين والمتكلمين، والفقهاء والصوفية وغيرهم، هو إبراز الحقائق للناس، والتعريف باقدال العلماء من كل طائفة ... وترى الأستاذ في مسائل الخلاف متحليا بحلية الأدب والإنصاف، بعيداً عن الاعتساف، وإثاره الجدل والمراء.

يقول الشيخ ظفر أحمد عثماني[1] في رسالة التعزية على وفاة الشيخ:

"كان الشيخ المغفور عالماً من العلماء الجيدّين والنشيطين، الذين يفتخر بهم أساتذتهم، قد درس الشيخ الكاندهلوي مني مشكاة المصابيح وكتبا عديدة في مظاهر علوم بسهار نفور، أنا فرحت جدّا بأنه صار شارحا لمشكاة المصابيح، وكتب شرح المشكاة المسمى بـ"التعليق الصبيح" باللغة العربية الذي يضيء اسمه إلى الأبد، وسينال حظوة من الاستحسان والثناء من العلماء".

رأي الشيخ ظفر أحمد عثماني فيه:

ذكر الشيخ ظفر أحمد عثماني في مقالة على خدمات حديث الشاه ولي الله المحدّث الدهلوي "التعليق الصبيح"، وقال فيها عنه:

"هذا تأليف لشابنا الشيخ محمد إدريس الكاندهلوي، هذا الشرح لمشكاة المصابيح جيد، وطبع في دمشق، ألقيت نظري على أربعة مجلدّات، وسمعت من المؤلف بنفسه مقامات عديدة، ورأيت جهد المؤلف وسِعَةَ نظره، ومنهجه وأسلوبه، كل هذا مأثرة، وأدعو الله تعالى أن يوفق بالجدّ والتحقيق أكثر للعالم شابنا آمين". كثَّر الله أمثاله، وتقبل الله أعماله.

ويقول الشيخ شَبِّيْر أحمد عثماني في رسالة[2]:

"وحالياً، قد أعدّ أخونا الكريم محمد إدريس الكاندهلوي (الذي يدرس القرآن والحديث بدارالعلوم بديو بند ومواضع أخرى منذ مدّة طويلة) شرحا كاملاً رائعاً لمشكاة المصابيح، بعد أن بذل جهوداً تامة ليلاً ونهاراً، وهذا الشرح مغنٍ لطلاّب الحديث عن الشروح الأخرى، وجامع للمباحث النادرة".

---

[1] الشيخ ظفر أحمد عثماني كان محدثاً كبيراً ومصنفا للكتب العديدة، ومن مؤلفاته إعلاء السنن، وهو تصنيف عظيم في فقه الحديث، وكان أستاذ الشيخ محمد إدريس الكاندهلوي.

[2] الشيخ شبير أحمد عثماني كان من علماء الهند وباكستان. وكان زميلاً لقائد أعظم محمد على جناح في تأسيس باكستان. وله مؤلفات عديدة، أهمها شرح صحيح مسلم المسمى "فتح الملهم".

يقول الشيخ السيد أبو الأعلى المودودي فيه[1]:

"إن التعليق الصبيح على مشكاة المصابيح تصنيف ذو مكانة عالية للشيخ".

وذكر برو كلمان الأديب الألماني المعروف عن التعليق الصبيح من ضمن شروح المشكاة.

خاتمة البحث:

ولد الشيخ الكاندهلوي في سنة ١٣١٢هـ، وارتحل إلى رحمة ربه في عام ١٣٩٤هـ، وهكذا مكث في الحياة الدنيا أربعا وسبعين سنة، وبذل ستاً وستين سنة منها في خدمة علم الحديث والتفسير طلباً وتدريساً وتأليفاً وتصنيفاً، وينبغى أن يقال: كان يعايش الحديث النبوى، وجعل الحديث النبوي – على صاحبه ألف ألف تحية وتسليم – همه الوحيد واهتمامه الفريد، وشعاراً ودثاراً لنفسه.

وكان الشيخ محمد إدريس الكاندهلوي راسخاً في العلم، ومستقيماً في الفكر والعقيدة، كما تتجلى هذه الاستقامة الفكرية في كتاب التعليق البصيح في كل باب، وفي شرح كل حديث، حتى في كل صفحة وسطر. واختار الشيخ منهجا يسيراً وعبارة سهله كي تفهم المسائل المشكلة والصعبة.

استفاد الشيخ في تأليف هذا الكتاب من علوم السلف وتأليفاته، وكان دائما متواضعاً أمام علوم السلف ومعارفهم، يقول الشيخ: "وأكبر عنايتي وغاية اهتمامي في هذا التعليق بشرح الأحاديث، وإبراز نكانتها ولطائفها، وبيان أسرارها ومعارفها، وكشف حقائقها ودقائقها على ما يقتضيه علم المعاني والبيان، بعد تتبع كتب العلماء الراسخين المؤرخين بهذا الشان؛ فإني لست من فرسان هذا الميدان، فلهم المنة والفضل".

وبالجملة، فلا شك في أن هذا الشرح شرح عظيم، وخدمة جليلة لعلم الحديث الشريف، وينبغي أن يتوجه العلماء إلى تحقيق هذا الكتاب وتخريجه؛ لأن الشيخ نقل فيها أحاديث رسول الله ﷺ وأقول العلماء، واستشهد في بعض المواقع بالأبيات، فتخريج الأحاديث، والأقوال

[1] سيد أبو الأعلى مودودي كان من معاصري الشيخ الكاندهلوي، ألف كتاباً في تفسير القرآن العظيم، عنوان "تفهيم القرآن"، وكان مؤسس الجماعة الإسلامية السياسية في باكستان.

والأبيات نافع لأهل العلم والبحث.

وندعو الله عز وجل أن يتقبل من الشيخ هذه الخدمة العظيمة، ويجعله ذخراً لآخرته، ووسيلة لرفع درجاته، وأن يوفقنا أن نستفيد من هذا السفر الجليل إفادة كاملة، ونستطيع أن نحصِّل خير وبركة هذا التأليف الكريم. آمين يا رب العالمين. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.